آيات النداء (يا أهل الكتاب / قل يا أهل الكتاب): دراسة حِجاجية استدلالية.

الدكتور عبد العالي كحيل
حاصل على شهادة الدكتوراه بجامعة الحسن الثاني
كلية الآداب والعلوم الإنسانية، عين الشق
أستاذ لمادة التربية الإسلامية بالسلك الثانوي الإعدادي
المغرب

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم عام:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء وإمام المرسلين، سيدنا وحبيبنا ونبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فإن القرءان الكريم هو كتاب حجاجي بامتياز، فقد بيَّن فيه ربنا عز وجل كل شيء، بين فيه الحجة، وأوضح فيه المحجة، فلا عذر لمن بلغه البتة، لأن آياته واضحة، وحججه بينة، وبراهينه ساطعة، كما قال تعالى: (ولقد يسرنا القرءان للذكر فهل من مدكر) [القمر:17].

لقد سهل الله تعالى ألفاظ القرءان "للحفظ والأداء، ومعانيه للفهم والعلم، لأنه أحسن الكلام لفظا، وأصدقه معنى، وأبينه تفسيرا، فكل من أقبل عليه يسرالله عليه مطلوبه غاية التيسير، وسهله عليه، والذكر شامل لكل ما يتذكر به العاملون من الحلال والحرام، وأحكام الأمر والنهي، وأحكام الجزاء والمواعظ والعبر، والعقائد النافعة والأخبار الصادقة، ولهذا كان علم القرآن حفظا وتفسيرا، أسهل العلوم، وأجلها على الإطلاق، وهو العلم النافع الذي إذا طلبه العبد أعين عليه، قال بعض السلف عند هذه الآية: هل من طالب علم فيعان عليه ؟ ولهذا يدعوالله عباده إلى الإقبال عليه والتذكر بقوله: (فهل من مدكر)".[1]

لقد خاطب الله تعالى في القرءان الكريم كل الناس – مسلمهم وكافرهم – يدعوهم، ويرشدهم، ويحثهم على لزوم طريق الاستقامة، وتحقيق الغاية التي من أجلها خلق الله تعالى الجن والإنس، والمتمثلة في تحقيق التوحيد لله تعالى، والبراءة من الشرك وأهله، كما قال تعالى: (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) [الذاريات:56]. ومن الذين خاطبهم الله عز وجل: أهل الكتاب (اليهود والنصارى).

وقد جاءت هذه الدراسة تحليلا للآيات الكريمة التي تتضمن النداء لأهل الكتاب، مقتصرا على الآيات التي تبدأ بقوله تعالى: (يا أهل الكتاب / قل يا أهل الكتاب)، وقد سلكت في بحثي – هذا – المنهج الاستقرائي التحليلي، حيث قمت بجمع الآيات القرآنية التي اشتملت على النداء القرآني لأهل الكتاب، ثم قمت بدراسة تلك النداءات دراسة تحليلية حجاجية استدلالية، من أجل معرفة الظواهر والأخلاق التي كان هدف النداء القرآني المتعلق بأهل الكتاب التحذير منها وتصحيحها.

وقد تبين من خلال هذه الدراسة ما يلي:

– أن القرءان الكريم هو خطاب إلى العلم أجمع.

– أن القرءان الكريم بين جميع الجوانب المتعلقة بسلوك أهل الكتاب وصفاتهم.

– أن القرءان الكريم وصف الوسائل المناسبة التي تحمي من سلوكات أهل الكتاب، وتدحض حججهم الواهية، وأكاذيبهم المفضوحة، وغدرهم المتواصل، وأخلاقهم الدنيئة، بأسلوب بليغ سهل ميسر، يجمع بين البلاغة والإقناع، المتضمن للحجج البالغة، والبراهين الساطعة.

– أن معتقدات أهل الكتاب في العصر الحاضر لا تختلف البتة عن معتقدات آبائهم وأجدادهم قديما.

– وأن موقفهم من الخطاب القرآني هو موقف سلبي؛ فهم لم يحققوا الالتزام بما أمرالله تعال به. فهم شر خلف لشر سلف، فمن أوصافهم اللصيقة بهم: الشرك بالله العظيم، وإساءة الأدب معالله تعالى، ومع رسله الكرام، ونقض العهود والمواثيق، والغلو في الدين، والتحريف للكتب السماوية، وسفك دماء الأبرياء، وافتعال الحروب، والسعي في الأرض فسادا...

وغير ذلك مما تضمنته هذه الدراسة.

وبناء على ما سبق، فإنه واجب على العلماء والدعاة إلىالله تعالى التحاور مع أهل الكتاب (اليهود والنصارى)، وبيان حقيقة الإسلام لهم، ودعوتهم إليه، وبيان لهم أن القرءان الكريم كتاب منزل من عندالله تعالى على سيدنا محمد صلىالله عليه وسلم، وأن تكون دعوتهم إلى الإسلام مبنية على الرحمة والرفق واللين، إذ الهدف من الدعوة هو هداية الناس إلى الصراط المستقيم، وأن يتجنب الدعاة إلىالله تعالى كل ما من شأنه أن يكون سببا في التنفير، كما قال تعالى: (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين) [النحل:125].

إن أغلب عوام اليهود والنصارى اليوم قد انتقلوا من التدين إلى الإلحاد، فتركوا التدين بسبب أن الأحبار والرهبان قد أوصلوا لهم الدين مشوها، كما أن كثيرا منهم لم يصلهم الإسلام على حقيقته، فكانوا بحاجة جد شديدة إلى دعوتهم إلى الإسلام العظيم الذي هو دين جميع الأنبياء والمرسلين – عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة وأزكى التسليم – والذي يتضمن تحقيق العبودية لله تعالى وحده دون ما سواه، فلا بد على الدعاة إلىالله تعالى من أن يبينوا للقوم حقيقة الإسلام المثلى، ومنزلته العظمى، وأنالله تعالى لا يقبل من أحد دينا سواه، وأن يجادلوهم بالتي هي أحسن، إذ الغاية من الحوار والحجاج هو التأثير في المتلقي، ومحاولة إفهامه، وإقناعه، واستمالة نفسه، وإذعانه للحق.

وقد تضمنت هذه الدراسة محورين اثنين، وهما:

*** المحور الأول: شرح مصطلحات العنوان:**

أ – مفهوم أهل الكتاب.

ب – مفهوم الحِجاج.

ج – مفهوم الاستدلال.

د – العلاقة بين الحِجاج والاستدلال.

*** المحور الثاني: دراسة تطبيقية لآيات النداء لأهل الكتاب.**

وقد سلكت في هذه الدراسة مسلكا وسطا مختصرا، بحيث لم أطل فأمل، ولم أقصر فأخل، وسمته بـ.. **(آيات النداء (يا أهل الكتاب / قل يا أهل الكتاب): دراسة حِجاجية استدلالية).**

وهذا أوان الشروع في المقصود، والله تعالى حسبي ونعم الوكيل، عليه توكلت وإليه أنيب، فأقول حامدا مصليا:

المحور الأول: شرح مصطلحات العنوان:

أ – مفهوم أهل الكتاب:

المراد بالكتاب: ما أنزله الله تعالى من الكتب على أنبيائه ورسله – عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة وأزكى التسليم – وقد "اختلف العلماء في المراد بأهل الكتاب:

فذهب الحنفية إلى أن المراد بهم: كل من يؤمن بنبي ويقر بكتاب، ويدخل في ذلك اليهود والنصارى، ومن آمن بزبور داود عليه السلام وصحف إبراهيم عليه السلام، وذلك لأنهم يعتقدون دينا سماويا منزلا بكتاب.

وذهب جمهور الفقهاء إلى أن المراد بهم: اليهود والنصارى بجميع فرقهم المختلفة دون غيرهم ممن لا يؤمن إلا بصحف إبراهيم وزبور داود.

واستدلوا لذلك بقوله تعالى: (أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين) فالطائفتان اللتان أنزل عليهما الكتاب من قبلنا هما اليهود والنصارى، كما قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة وغيرهم من المفسرين. وأما صحف إبراهيم وداود فقد كانت مواعظ وأمثالا لا أحكام فيها، فلم يثبت لها حكم الكتب المشتملة على أحكام. قال الشهرستاني: أهل الكتاب: الخارجون عن الملة الحنيفية، والشريعة الإسلامية، ممن يقول بشريعة وأحكام وحدود وأعلام. . . وما كان ينزل على إبراهيم وغيره من الأنبياء عليهم السلام ما كان يسمى كتابا، بل صحفا".[2]

والذي يظهر أن مصطلح أهل الكتاب يطلق على اليهود والنصارى، وهذا واضح لمن تأمل في الآيات القرءانية التي تتحدث عن أهل الكتاب.

وفي هذا السياق يقول الشيخ الطاهر بن عاشور – رحمه الله تعالى -: " اسم أهل الكتاب لقب في القرآن لليهود والنصارى الذين لم يتدينوا بالإسلام لأن المراد بالكتاب التوراة والإنجيل إذا أضيف إليه (أهل)".[3]

فمصطلح أهل الكتاب – إذن – يطلق على اليهود والنصارى، ولا يطلق على المسلمين، " فلا يطلق على المسلمين: أهل الكتاب، وإن كان لهم كتاب، فمن صار مسلما من اليهود والنصارى لا يوصف بأنه من أهل الكتاب في اصطلاح القرآن، ولذلك لما وصف عبدالله بن سلام في القرآن وصف بقوله: ومن عنده علم الكتاب [الرعد: 43] وقوله: وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله [الأحقاف: 10] ، فلما كان المتحدث عنهم آنفا صاروا مؤمنين بمحمد صلى الله عليه وسلم فقد انسلخ عنهم وصف أهل الكتاب، فبقي الوصف بذلك خاصا باليهود والنصارى".[4]

فأهل الكتاب هم من جاءتهم التوراة والإنجيل، فكلمة (أهل الكتاب) ما وردت في القرءان الكريم إلا لهاتين الطائفتين، كما قال تعالى: (أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين) [الأنعام:156].

ﻓ .. " قوله تعالى: على طائفتين من قبلنا قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس هم اليهود والنصارى وكذا قال مجاهد والسدي وقتادة وغير واحد".[5]

ب – مفهوم الحِجاج:

الحِجاج هو آلية من آليات الحوار والتواصل، المفضيان إلى التأثير في المتلقي، ومحاولة إقناعه، واستمالة قلبه إلى إلى حجج المرسل.

ولتوضيح هذا المعنى بجلاء لابد من توضيح هذا المفهوم لغة واصطلاحا.

مفهوم الحجاج لغة:

أما تعريف الحجاج لغة فإن معانيه تدور حول الغلبة بالحجة، ومحاولة إقناع المتلقي.

جاء في لسان العرب: "حاججته أحاجه محاجا، ومحاججة حتى حججته: أي غلبته بالحجج التي أدليت بها. والمحجة: الطريق، وقيل: جادة الطريق...

والحجة: البرهان، وقيل: الحجة ما دوفع به الخصم، وقال الأزهري: الحجة: الوجه الذي يكون به الظفر عند الخصومة. وهو رجل محجاج أي جدل.

والتحاج: التخاصم، وجمع الحجة: حجج وحجاج، وحاجه محاجة وحجاجا: نازعه الحجة. وحجه يحجه حجا: غلبه على حجته. وفي الحديث: فحج آدم موسى، أي غلبه بالحجة. واحتج بالشيء: اتخذه حجة.

قال الأزهري: إنما سميت حجة لأنها تحج، أي: تقصد، لأن القصد لها وإليها. وفي حديث الدجال: إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه، أي محاجه، ومغالبه بإظهار الحجة عليه. والحجة الدليل والبرهان...ومنه حديث معاوية: فجعلت أحج خصمي".[6]

فيلاحظ من خلال هذا التعريف أن الحجاج يكون بناء على تقديم حجج وأدلة للطرف الآخر.

فالحجاج بهذا المفهوم مرادف للجدل.

وممن عدَّ الحجاج مرادفا للجدل – أيضا -: الفيروزآبادي حيث قال: ""والمحاجج الجدل".[7]

إن مدار الحجاج في اللغة حول الغلبة بالحجة، وإقامتها على المخالف، وممن قال بهذا القول من اللغويين:

– الخليل بن أحمد الفراهيدي، الذي قال: "والحجة: وجه الظفر عند الخصومة. والفعل حاججته فحججته. واحتججت عليه بكذا. وجمع الحجة: حجج"[8]

– أبو العباس الفيومي، حيث قال: "والحجة الدليل والبرهان والجمع حجج مثل: غرفة وغرف، وحاجه محاجة فحجه يحجه من باب قتل إذا غلبه في الحجة".[9]

– ابن فارس الذي قال: "يقال حاججت فلانا فحججته أي غلبته بالحجة، وذلك الظفر يكون عند الخصومة، والجمع حجج. والمصدر الحجاج".[10]

- الجوهري حيث قال: "والحجة: البرهان. تقول حاجه فحجه أي غلبه بالحجة. وفي المثل: " لج فحج ". وهو رجل محجاج، أي جدل. والتحاج: التخاصم".[11]

- وهذا المعنى موجود أيضا عند أبي الحسن المرسي حيث قال: "والحجة: ما دوفع به الخصم، والجمع حجج، وحجاج. وحاجه محاجة وحجاجا: نازعه الحجة. وحجه يحجه حجا: غلبه على حجته. وفي الحديث " فحج آدم موسى، " واحتج بالشيء: اتخذه حجة".[12]

الخلاصة: أن الحجاج في اللغة تدور معانيه على المجادلة، والمغالبة، والمخاصمة، وإقامة الحجة على الطرف الآخر.

مفهوم الحجاج اصطلاحا:

الحجاج في الاصطلاح يختلف مفهومه من فن إلى آخر، فتعريفه عند اللغويين ليس هو تعريفه عن البلاغيين، وليس هو تعريفه عند علماء الأصول، وعلماء المنطق...

لذلك سأحاول التوفيق والجمع فأقول:

إن " المراد بالحجاج هو إظهار حجة الخصم على الخصم"[13].

ومعنى إظهار الحجة، أي إقامتها على المخالف، ومحاولة إقناعه، والتأثير فيه.

فالحجاج بهذا المعنى هو "جنس خاص من الخطاب، ينبني على قضية أو فرضية خلافية، يعرض فيها المتكلم دعواه بالتبريرات، عبر سلسلة من الأقوال المترابطة ترابطا منطقيا، قاصدا إقناع الآخر بصدق دعواه، والتأثير في موقفه، أو سلوكه تجاه تلك القضية".[14]

إن الحجاج هو وسيلة من وسائل الإقناع، وآلية من آليات التواصل، وهو من العلوم التي يمارسها الإنسان كل يوم، بل ظهوره قديم جدا، فقد وُجد مع البشر منذ البداية، إذ لا يمكن الاستغناء عنه البتة.

لقد وظف الأنبياء الحجاج مع أقوامهم في دعوتهم إلىالله تعالى، ومن تأمل القرءان الكريم أدرك هذا بجلاء.[15]

والحجاج في القرءان الكريم ورد بصيغ صرفية كثيرة، وبمعان متعددة، منها:

- **الجدال**، كما في قوله تعالى: (قل أتحاجوننا في الله وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون) [البقرة:139].

ومعنى: (أتحاجوننا)، " أي أتجادلوننا".[16]

- **الخصام**، كما في قولالله تبارك وتعالى: (وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح اللهعليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون) [البقرة:76].

فمعنى قولالله عز وجل: (ليحاجوكم به)، أي: "ليخاصموكم به".[17]

– **الدليل والبرهان**، كما في قول‌الله سبحانه وتعالى: (وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم) [الأنعام:83].

فقوله تعالى: (وتلك حجتنا آتيناها إبرهيم على قومه)، أي: " تلك البراهين التي أوردها إبراهيم عليهم".[18]

– **العذر**، كما في قول‌الله جل في علاه: (رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على‌الله حجة بعد الرسل وكان‌الله عزيزا حكيما) [النساء:165].

فالمقصود بالعذر المقطوع في الآية الكريمة كما قال الإمام الطبري – رحمه‌الله تعالى -: "" فقطع حجة كل مبطل ألحد في توحيده وخالف أمره، بجميع معاني الحجج القاطعة عذره، إعذارا منه بذلك إليهم، لتكون لله الحجة البالغة عليهم وعلى جميع خلقه"[19].

– **التبرير**، كما في قول‌الله عز وجل: (وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجتهم إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين) [الجاثية:25].

أي: ليس لهم تجاه آيات‌الله تعالى من " متشبث يعارضونها به".[20]

وغير ذلك من الآيات القرءانية التي تضمنت صيغ الحجاج الصرفية، ومعانية المتعددة، حسب السياق الذي وردت فيه.

ج – مفهوم الاستدلال:

مفهوم الاستدلال لغة:

الاستدلال في اللغة معناه: طلب الدليل، لأن الألف والسين والتاء إذا دخلت على الفعل تفيد الطلب في أغلب الأحيان.

وممن قال بهذا المعنى:

قال الآمدي، حيث قال: "وأما معناه في اللغة فهو: استفعال من طلب الدليل، والطريق المرشد إلى المطلوب".[21]

وقال التهانوني: "الاستدلال في اللغة طلب الدليل".[22]

فمعنى الاستدلال في اللغة يدور على هذا المعنى، أي طلب الدليل من أجل استخراج معنى منه، واستنباطه، قال ابن عقيل: "الاستدلال: الطلب للدلالة على المعنى، ولا يخلو الاستدلال من أن يستخرج به المعنى أو يعلم به الحق في المعنى".[23]

مفهوم الاستدلال اصطلاحا:

لما كان التعريف اللغوي مع التعريف الصطلاحي مترابطين، وكان مفهوم الاستدلال في اللغة العربية هو طلب الدليل، فإن المفهوم الاصطلاحي له مرتبط ارتباطا وثيقا بمعناه اللغوي.

وعلى هذا فإن مفهوم الاستدلال اصطلاحا هو: ""ما أمكن التوصل به إلى معرفة الحكم".[24]

إذن، الاستدلال هو استنباط ما دل عليه الدليل من المعاني والأحكام، فهو " يقع على النظر في الدليل، والتأمل المطلوب به العلم بحقيقة المنظور فيه وقد يقع أيضاً على المسألة عن الدليل والمطالبة به".[25]

وعرفه المناطقة بأنه "استنتاج قضية من قضية، أو عدة قضايا أخرى، أو هو الوصول إلى حكم جديد مغاير للأحكام التي استنتج منها، وربما كان أهم عمل للمنطقي هو وضع القوانين التي بمقتضاها يكون الاستدلال صحيحا، لأن الغاية من التفكير كسب العلم الصحيح باستخدام ما يعلمه الإنسان في الوصول إلى ما يعلمه، متبعا في ذلك القواعد الضرورية لصحة الانتقال من المعلوم إلى المجهول".[26]

فبناء على ما سبق، فإن الهدف من الاستدلال هو المطالبة بالدليل والحجة والبرهان، من أجل الوصول إلى الأحكام والمعاني المتضَمنة فيه.

د – العلاقة بين الحِجاج والاستدلال:

إن الهدف من الاستدلال هو الإقناع، وهذا الهدف هو غاية الحجاج، ذلك أن الاستدلال مرتبط بالبرهنة، والتي هي وسيلة من وسائل الحجاج.

إذن، فالعلاقة بين الحجاج والاستدلال مترابطة، وكلاهما يؤدي إلى نتيجة واحدة، وهي إقناع المتلقي، والتأثير فيه، وبيان الحجة له، وهذا لا يلزم منه أن هناك ترادف بين المفهومين، بل يشتركان في معان، ويتباينان في أخرى.

إن الاستدلال له ارتباط واضح بالحجاج، حيث يمثل "سياقه العقلي، أي تطوره المنطقي، ذلك أن النص الحجاجي نص قائم على البرهنة، فيكون بناؤه على نظام معين، تترابط فيه العناصر وفق نسق تفاعلي، وتهدف إلى غاية مشتركة، ومفتاح هذا النظام لساني بالأساس، فإذا أعدنا النص الحجاجي إلى أبسط صورة، وجدناه ترتيبا عقليا للعناصر اللغوية، ترتيبا يستجيب لنية الإقناع".[27]

لكن رغم هذا التداخل، فهذا لا يعني أنهما بمعنى واحد، كما أوضح أبو هلال العسكري عند تعريفه للحجة، بأنها: "الاستقامة في النظر، والمضي فيه على سنن مستقيم، وهذا هو فعل المستدل، وتأثير الحجة في النفس، كتأثير البرهان فيها، وإنما تنفصل الحجة عن البرهان، لأن الحجة مشتقة من معنى الاستقامة في القصد، والفرق بين الاحتجاج والاستدلال، أن الاستدلال طلب الشيء من جهة غيره".[28]

إنه عند التأمل في المفهومين يتبين "" أن الحجاج في الدراسات الحجاجية على ضربين:

ضرب أنت فيه لاتبرح حدود المنطق، فهو ضيق المجال، ومرادف للبرهنة والاستدلال، إذ هو يعنى بتتبع الجانب الاستدلالي في المحاجة،

وضرب هو واسع المجال، لانعقاد الأمر فيه على دراسة مجمل التقنيات البيانية الباعثة على إذعان السامع، أو القارئ".[29]

إن بين الحجاج والاستدلال عموم وخصوص، والذي يظهر أن الحجاج أعم من الاستدلال البرهاني، فـ .. "كلمة الحجاج بحكم صيغها الصرفية الدالة على معنى المشاركة في تقديم الحجج، وعلى مقابلة الحجة بالحجة، مؤهلة أكثر من كلمة الاستدلال، لتؤدي مفهوما مهما جدا، تقوم عليه النظرية الحديثة (l'argumentation)، وهو مفهوم المناقشة والحوار. فظهر من ذلك: أن الحجاج أشمل وأوسع من الاستدلال البرهاني، الذي ظل رغم انتقاله بين علوم مختلفة، يحافظ على حده المنطقي الأول، فهو على العموم: مجرد استنتاج لزوم وتوقف وضرورة. لهذا عد في نظرية الحجاج الحديثة، نقيضا للحجاج الذي ينطلق من مبدإ الحرية، ويقوم على الحوار".[30]

فالقصد من هذا التفصيل أن الحجاج والبرهان رغم العموم والخصوص الذي بينهما إلا أنهما يؤديان إلى نفس النتيجة، وهي محاولة إفهام المتلقي، واستمالة عقله إلى الحجج والأدلة التي يدلي بها المرسل والمستدل، وبذل الجهد في إقناعه والتأثير فيه.

المحور الثاني: دراسة تطبيقية لآيات النداء لأهل الكتاب:

النداء الأول:

قال الله تعالى:(قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) [آل عمران:64].

هذا الخطاب من الله عز وجل يشمل جميع أهل الكتاب، يأمرهم الله تعالى فيه بالتوحيد، أي لإفراد الله تعالى بالعبادة دون ما سواه، ويحذرهم فيه من الشرك، وهو صرف عبادة من العبادات لغير الله تعالى.

فـ .. " هذا الخطاب يعم أهل الكتاب من اليهود والنصارى ومن جرى مجراهم (أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا) لا وثنا ولا صليبا ولا صنما ولا طاغوتا ولا نارا ولا شيئا, بل نفرد العبادة لله وحده لا شريك له؛ وهذه هي دعوة جميع الرسل, قال تعالى: (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون)".[31]

والمقصود بالكلمة السواء: (لا إله إلا الله)، والتي تعني وجوب توحيد الله تعالى، والبراءة من الشرك وأهل، وإذا كان أهل الكتاب قد اتخذ بعضهم بعضا أربابا فإنهم ليسوا من أهل (لا إله إلا الله)، لأن اتخاذ الأرباب من دون الله تعاى شرك أكبر.

لقد احتج الله تعالى على أهل الكتاب في هذه الآية الكريمة بالكلمة السواء (لا إله إلا الله)، التي دعا إليها جميع الأنبياء والرسل – عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة وأزكى التسليم – فإذا كان النصارى يزعمون النسبة إلى شريعة موسى وعيسى – عليهما وعلى نبينا أفضل الصلاة وأزكى السلام – فيلزمهم اتباع ما جاءوا به من الدعوة إلى هذه الكلمة العظيمة (لا إله إلا الله)، وما تضمنته من النفي والإثبات، لكن ما داموا قد اتخذوا البشر أربابا من دون الله تعالى فإن سيدنا موسى عليه السلام، وسيدنا عيسى عليه السلام بريئان منهم، وكيف لا يكون الأمر كذلك ودعوة جميع الأنبياء مبنية على إفراد الله تعالى بالعبادة، والبراءة من كل ناقض للتوحيد.

قال الله تعالى: (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) [النحل:36].

إن الله عز وجل في هذا النداء يأمر نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم أن يقول " لأهل الكتاب من اليهود والنصارى (تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم) أي: هلموا نجتمع عليها وهي الكلمة التي اتفق عليها الأنبياء والمرسلون، ولم يخالفها إلا المعاندون والضالون، ليست مختصة بأحدنا دون الآخر، بل مشتركة بيننا وبينكم، وهذا من العدل في المقال والإنصاف في الجدال، ثم فسرها بقوله (ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا) فنفرد الله بالعبادة ونخصه بالحب والخوف والرجاء ولا نشرك به نبيا ولا ملكا ولا وليا ولا صنما ولا وثنا ولا حيوانا ولا جمادا (ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله) بل تكون الطاعة كلها لله ولرسله، فلا نطيع المخلوقين في معصية الخالق، لأن ذلك جعل للمخلوقين في منزلة الربوبية، فإذا دعي أهل الكتاب أو غيرهم إلى ذلك، فإن أجابوا كانوا مثلكم، لهم ما لكم وعليهم ما عليكم، وإن تولوا فهم معاندون متبعون أهواءهم فأشهدوهم أنكم مسلمون، ولعل الفائدة في ذلك أنكم إذا قلتم لهم ذلك وأنتم أهل العلم على الحقيقة، كان ذلك زيادة على إقامة الحجة عليهم كما استشهد تعالى بأهل

العلم حجة على المعاندين، وأيضا فإنكم إذا أسلمتم أنتم وآمنتم فلا يعبأالله بعدم إسلام غيركم لعدم زكائهم ولخبث طويتهم، كما قال تعالى (قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا) الآية وأيضا فإن في ورود الشبهات على العقيدة الإيمانية مما يوجب للمؤمن أن يجدد إيمانه ويعلن بإسلامه، إخبارا بيقينه وشكرا لنعمة ربه".[32]

وقد جاء في آية أخرى أن اتخاذ اليهود والنصارى بعضهم بعضا أربابا من دونالله، إنما في الطاعة في تحليل الحرام، وتحريم الحلال.

قالالله تعالى: (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دونالله) [التوبة:31].

والمقصود بالأحبار هم العلماء.[33]

والرهبان "هم أصحاب الصوامع وأهل الاجتهاد في دينهم منهم".[34]

لقد فسر النبي صلىالله عليه وسلم معنى هذا الاتخاذ، وهو أن زعماء اليهود والنصارى حللوا ما حرمالله، وحرموا ما أحلالله، فكان كل من أطاعهم قد اتخذهم أربابا من دونالله.

ف " قوله تعالى أربابا من دونالله قال الرازي: الأكثرون من المفسرين قالوا: ليس المراد من الأرباب أنهم اعتقدوا فيهم أنهم آلهة العالم، بل المراد أنهم أطاعوهم في أوامرهم ونواهيهم، أي لما روى الترمذي عن عدي بن حاتم قال: أتيت النبي صلىالله عليه وسلم وفي عنقي صليب من ذهب، فقال: يا عدي! اطرح عنك هذا الوثن. وسمعته يقرأ في سورة براءة اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دونالله قال: أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئا استحلوه، وإذا حرموا عليهم شيئا حرموه.

وروى الإمام أحمد والترمذي وابن جرير من طرق، عن عدي بن حاتم رضيالله عنه أنه لما بلغته دعوة رسولالله صلىالله عليه وسلم فر إلى الشام، وكان قد تنصر في الجاهلية فأسرت أخته وجماعة من قومه، ثم من رسولالله صلىالله عليه وسلم، على أخته، وأعطاها، فرجعت إلى أخيها، فرغبته في الإسلام، وفي القدوم على رسول الله صلىالله عليه وسلم، فقدم عدي المدينة، وكان رئيسا في قومه طيئ، وأبوه حاتم الطائي المشهور بالكرم، فتحدث الناس بقدومه، فدخل على رسولالله صلىالله عليه وسلم وفي عنق عدي صليب من فضة، وهو يقرأ هذه الآية اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دونالله قال: فقلت: إنهم لم يعبدوهم، فقال بلى إنهم حرموا عليهم الحلال، وأحلوا لهم الحرام، فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم".[35]

وصورة الحجاج الوارد في الآية الكريمة على هذه الصورة:

– الحجة الأولى: الانتساب إلى كتاب سماوي يلزم منه اتباعه، والتمسك بتعاليمه.

– الحجة الثانية: الكلمة السواء (لا إله إلاالله) تتضمن نفيا وإثباتا، فمن أشرك معالله تعالى غيره فقد أخل بهذين الركنين، فلا هو نفى الألوهية عما سوىالله تعالى، ولا هو أثبتها لله تعالى وحده دون ما سواه.

– الحجة الثالثة: جميع الكتب السماوية تدعو إلى عبادةالله تعالى وحده، والتحذير من الشرك.

– النتيجة: من لم يوحدالله تعالى فإن الكتب السماوية بريئة منه، ولا ينفعه ما يزعمه من انتساب لها.

فالدعاوى ما لم تقم عليها /// بينات أبناؤها أدعياء

لقد استدل الله تعالى في هذا النداء على أهل الكتاب بأن الكلمة السواء (لا إله إلا الله) التي دعا إليها جميع الأنبياء والرسل – عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة وأزكى التسليم – تتنافى مع ما عليه اليهود والنصارى من تحليل للحرام، وتحريم للحلال، فلو كان اليهود صادقين في الإيمان بنبوة سيدنا موسى عليه السلام، ولو كان النصارى صادقين في الإيمان بنبوة سيدنا عيسى عليه السلام، لتمسكوا بدعوتهما، ولعملوا بما جاءا به من عند رب العالمين، من التوحيد وطاعة الله تعالى، والبعد عن الشرك والمعصية، ولآمنوا بجميع الأنبياء والرسل، بدل الكفر بهم، والتفريق بينهم، ومحاربتهم، وإظهار العداوة لهم.

إن في هذا الحوار الذي أمر الله تعالى به نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم في هذا النداء قد تضمن من الحجج الواضحة والبراهين الساطعة على أن اليهود والنصارى ليسوا على شيء، وأن الأنبياء برءاء منهم، لأنهم خالفوا دعوتهم، ولم يلتزموا بها، بل حاربوها، واتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون الله تعالى.

وفي الآية فائدة عظيمة، وهي أنه عند حوار أهل الكتاب ينبغي البدء في محاورتهم حول دعوتهم إلى الكلمة السواء (لا إله إلا الله) التي ما من نبي إلا وقد دعا إليها، والتي لا معناها: لا معبود بحق إلا الله تعالى، هذا المعنى الذي لم يحققه اليهود والنصارى البتة.

النداء الثاني:

قال الله سبحانه وتعالى: (ياأهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون هاأنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين) [آل عمران:65-68].

بيّن الله عز وجل في هذه الآيات الكريمات بطلان ما عليه اليهود والنصارى من الدعاوى الكاذبة، والتي تتمثل في أن اليهود ادعوا أن إبراهيم – عليه السلام – كان يهوديا، والنصارى ادعوا أنه كان نصرانيا، فكانت بغير علم، بل مبنية على الجهل واتباع الأهواء، فكانت جدالهم باطلا، وحجتهم داحضة.

إنه "لما ادعى اليهود أن إبراهيم كان يهوديا، والنصارى أنه نصراني، وجادلوا على ذلك، رد تعالى محاجتهم ومجادلتهم من ثلاثة أوجه، أحدها: أن جدالهم في إبراهيم جدال في أمر ليس لهم به علم، فلا يمكن لهم ولا يسمح لهم أن يحتجوا ويجادلوا في أمر هم أجانب عنه وهم جادلوا في أحكام التوراة والإنجيل سواء أخطأوا أم أصابوا فليس معهم المحاجة في شأن إبراهيم، الوجه الثاني: أن اليهود ينتسبون إلى أحكام التوراة، والنصارى ينتسبون إلى أحكام الإنجيل، والتوراة والإنجيل ما أنزلا إلا من بعد إبراهيم، فكيف ينسبون إبراهيم إليهم وهو قبلهم متقدم عليهم، فهل هذا يعقل؟! فلهذا قال (أفلا تعقلون) أي: فلو عقلتم ما تقولون لم تقولوا ذلك، الوجه الثالث: أن الله تعالى برأ خليله من اليهود والنصارى والمشركين، وجعله حنيفا مسلما، وجعل أولى الناس به من آمن به من أمته، وهذا النبي وهو محمد صلى الله على وسلم ومن آمن معه، فهم الذين اتبعوه وهم أولى به من غيرهم، والله تعالى وليهم وناصرهم ومؤيدهم، وأما من نبذ ملته وراء ظهره كاليهود والنصارى والمشركين، فليسوا من إبراهيم وليس منهم، ولا ينفعهم مجرد الانتساب الخالي من الصواب. وقد اشتملت هذه الآيات على النهي عن المحاجة والمجادلة بغير علم، وأن من تكلم بذلك فهو متكلم في أمر لا يمكن منه ولا يسمح له فيه، وفيها أيضا حث على علم التاريخ، وأنه طريق لرد كثير من الأقوال الباطلة والدعاوى التي تخالف ما علم من التاريخ".[36]

وصورة الحجاج في الآيات كالآتي:

- الحجة الأولى: جدال اليهود والنصارى مبني على الجهل، فحتما مبني على الباطل.

- الحجة الثانية: ما ادعاه اليهود والنصارى في إبراهيم عليه السلام ليس صحيحا لأن التوراة والإنجيل أنزلهماالله تعالى من بعده.

- الحجة الثالثة: بناء على الحجتين السابقتين فإن إبراهيم عليه السلام لم يكن يهوديا كما تزعم يهود، ولم يكن نصرانيا كما تزعم النصارى، بل كان حنيفا (مائلا عن الشرك) مسلما موحدا لله رب العالمين، بريئا من الشرك وأهله.

النتيجة: إبراهيم عليه السلام بريء من اليهود والنصارى، وأن أولى الناس به هم المسلمون الذين أسلموا وجوههم لله تعالى، فحققوا التوحيد، وتبرءوا من الشرك والتنديد، وهم أصحاب الملة الحنيفية التي كان عليها سيدنا إبراهيم عليه السلام، وسائر الأنبياء والمرسلين – عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة و أزكى التسليم – ودعوا أقوامهم إليها – ليلا ونهارا، سرا وجهارا –

هذه الملة الحنيفية هي التي قالالله تعالى عنها: (قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دونالله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده) [الممتحنة:4].

فمن تمسك بها فهو المسلم حقا، والمؤمن صدقا، ومن رغب عنها فهو السفيه، كما قال تعالى: (ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين) [البقرة:130-131].

إن دعوى اليهود والنصارى باطلة، فما ادعوه مجرد زعم لا حقيقة له، بل هم ممن سفه نفسه، لأنهم خالفوا ملة إبراهيم عليه السلام، وحربوها، وحاربوا أهلها، ومن ذلك: قتلهم للأنبياء - عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة و أزكى التسليم – وتحريفهم للشرائع السماوية، وسعيهم في الأرض فسادا...

النداء الثالث:

قالالله عز وجل: (ياأهل الكتاب لم تكفرون بآياتالله وأنتم تشهدون) [ءال عمران:70].

في هذه الآية الكريمة أخبرالله تعالى أن أهل الكتاب يكفرون بآياتالله تعالى، "يعني: القرآن وبيان نعت محمد صلىالله عليه وسلم"،[37] والحال أنهم يشهدون بصحتها، وأنها من عندالله تعالى، ففيهم يصدق قولالله تعالى: (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين) [النمل:14].

قال الإمام الشوكاني في تفسيره: "والمراد بآياتالله: ما في كتبهم من دلائل نبوة محمد صلىالله عليه وسلم وأنتم تشهدون ما في كتبكم من ذلك، أو تشهدون بمثلها من آيات الأنبياء الذين تقرون بنبوتهم، أو المراد، كتم كل الآيات عنادا وأنتم تعلمون أنها حق. ولبس الحق بالباطل: خلطه بما يعتمدونه من التحريف."[38]

ووجه الحجاج في الآية في الآتي:

- الحجة الأولى: الكتب السماوية تشهد بنبوة نبينا محمد صلىالله عليه وسلم.

- الحجة الثانية: أهل الكتاب يشهدون بصحة ما في كتبهم من الدلائل على صدق نبوة نبينا محمد صلىالله عليه وسلم، وأن كفرهم به إنما عن عناد لا عن جهل، كما قال تعالى: (فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنةالله على الكافرين) [البقرة:89].

– النتيجة: ليس أمام أهل الكتاب إلا الإيمان بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وتصديقه، واتباعه، ومحبته، فإن أبوا فهم كافروا ليس فقط بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم، بل بجميع الأنبياء الذين بشروا به – عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة و أزكى التسليم –

النداء الرابع:

قال الله جل جلاله: (ياأهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون) [ءال عمران:71].

هذه الآية الكريمة مرتبطة بما قبلها، وهي أن الكتاب يلبسون الحق بالباطل، فمعنى قوله تعالى: "(يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل)، تخلطون الإسلام باليهودية والنصرانية، وقيل: لم تخلطون الإيمان بعيسى عليه السلام وهو الحق، بالكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم، وهو الباطل. وقيل: لم تخلطون التوراة التي أنزلت على موسى بالباطل الذي حرفتموه وكتبتموه بأيديكم، وتكتمون الحق وأنتم تعلمون أن محمدا صلى الله عليه وسلم ودينه حق".[39]

فمعنى لبس الحق بالباطل الذي يمارسه اليهود والنصارى: "خلطه به كأنما كسا الباطل ثوب الحق وكسا الحق ثوب الباطل حتى لا يعرف فيؤخذ به، ويهتدي عليه".[40]

ووجه الحجاج في الآية الكريمة تابع لما ورد في الآية السابقة، وهي أن اليهود والنصارى يعلمون أن النبي صلى الله عليه وسلم صادق، وأن ما جاء به من القرءان حق، لكنهم يجحدون ذلك، ويلبسون الحق بالباطل حسدا من عند أنفسهم.

النداء الخامس:

قال الله تبارك وتعالى: (قل ياأهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون) [ءال عمران:98].

بيّن ربنا عز وجل في هذه الآية الكريمة أن أهل الكتاب يكفرون بآيات الله تعالى السمعية والعقلية، الدالة على على أن الرسول صلى الله عليه وسلم حق، وأن ما جاء به حق، لكن عوض أن يؤمنوا به، ويذعنوا للحق الذي جاء به، كفروا به وبدعوته، وحاربوه أشد المحاربة، وتآمروا على قتله مرارا، و"وتخصيص أهل الكتاب بالخطاب دليل على أن كفرهم أقبح، لأن معرفتهم بالآيات أقوى وأنهم وإن زعموا أنهم مؤمنون بالتوراة والإنجيل فهم كافرون بهما. والله شهيد على ما تعملون والحال أنه شهيد مطلع على أعمالكم فيجازيكم عليها لا ينفعكم التحريف والاستسرار".[41]

إن الله سبحانه وتعالى لما ذكر "الأدلة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم واعتراضهم على ذلك ومناقشتهم حتى أفحموا، وبخهم الله على ذلك وعلى كفرهم فقال قل لهم يا محمد: يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله التي دلتكم على صدق محمد صلى الله عليه وسلم؟ وعلى أى أساس تسيرون؟ قل: هاتوا برهانكم إن كان عندكم برهان، وإذا لم يكن عندكم دليل ولا برهان فاعلموا أن الله شهيد عليكم وسيجازيكم على ما تعملون".[42]

إن في هذه الآية الكريمة "تعنيف من الله تعالى للكفرة أهل الكتاب على عنادهم للحق، وكفرهم بآيات الله، وصدهم عن سبيل الله من أراده من أهل الإيمان بجهدهم وطاقتهم، مع علمهم بأن ما جاء به الرسول حق من الله، بما عندهم من العلم عن الأنبياء الأقدمين والسادة المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وما بشروا به ونوهوا به من ذكر النبي الأمي الهاشمي العربي المكي سيد ولد آدم، وخاتم الأنبياء، ورسول رب الأرض والسماء، وقد توعدهم الله على ذلك، وأخبر بأنه شهيد على صنيعهم ذلك بما

خالفوا ما بأيديهم عن الأنبياء ومعاملتهم الرسول المبشر به بالتكذيب والجحود والعناد، فأخبر تعالى أنه ليس بغافل عما يعملون، أي وسيجزيهم على ذلك يوم لا ينفع مال ولا بنون".[43]

لقد دلت الآية الكريمة – كما دلت الآيتين السابقتين – أن أهل الكتاب يعلمون صدق نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ويشهدون بصحة الدلائل الواردة في كتبهم، لكن عوض أن يعتنقوا دين الإسلام، اختاروا طريق الجحود والكفران.

فوجه الحجاج في الآية الكريمة كالآيتين السابقتين.

وفي هذه الآية دليل واضح على أن من عرف الحق وحاد عنه هو أشد جرما من الذي كفر عن جهل، واليهود في الجحود ومعرفة الحق، أكثر من النصارى، لذلك فإن الله تعالى قد غضب عن اليهود، ووصفهم بالمغضوب عليهم، وأما النصارى فقد وصفهم بالضالين.

لذلك فإن المتأمل في التاريخ والواقع يدرك أن الذين يدخلون إلى الإسلام أغلبهم كانوا نصارى، والسبب هو أنهم كانوا يجهلون الحق، أما اليهود فإنهم يعلمونه، لذلك قلَّ أن يسلم من كان على دين اليهودية، لأن كفرهم كفر جحود وعناد وإباء واستكبار.

النداء السادس:

قال عز من قائل: (قل ياأهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجا وأنتم شهداء وماالله بغافل عما تعملون) [ءال عمران:99].

لقد بيَّن الله تعالى في هذه الآية الكريمة أن من صفات أهل الكتاب: الصد عن سبيل الله تعالى، ومحبتهم أن يكون الناس مائلين عن طريق الاستقامة.

فالقوم يسعون لتحقيق هاتين الغايتين، ويفعلون كل ما من شأنه للوصول إلى هاذين الهدفين، فمكرهم بالليل والنهار متواصل، وسعيهم في الأرض فسادا لا يتوقف، وغزوهم الفكري والعسكري مستمر، وإنفاقهم الأموال الطائلة من أجل ذلك لا يملون منه ولا يكلون...

قال الإمام الطبري في تفسير الآية: " يعني بذلك جل ثناؤه: يا معشر يهود بني إسرائيل وغيرهم ممن ينتحل التصديق بكتب الله: (لم تصدون عن سبيل الله)، يقول: لم تضلون عن طريق الله ومحجته التي شرعها لأنبيائه وأوليائه وأهل الإيمان (من آمن)، يقول: من صدق بالله ورسوله وما جاء به من عند الله (تبغونها عوجا)، يعني: تبغون لها عوجا".[44]

ووجه الحجاج في الآية الكريمة في الآتي:

- الحجة الأولى: أهل الكتاب يعلمون الحق الذي جاء به نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ولايريدون اتباعه، بدليل أنهم يصدون عنه كل من أراد الإيمان به، وينفقون في ذلك أموالا كثيرة لحرب الإسلام وأهله.

- الحجة الثانية: اليهود والنصارى لم يكفروا فقط النبي صلى الله عليه وسلم، وبالقرءان الكريم، بل كفروا بجميع الأنبياء، وبالكتب المنزلة عليهم، لأن الأنبياء – عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة وأزكى التسليم – قد بشروا برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وهذا موجود في الكتب السماوية، وأهل الكتاب يعلمون ذلك، لكن منعهم الكبر والحسد.

النتيجة: لا علاقة لأهل الكتاب بالكتب السماوية، فكفرهم بالنبي صلى الله عليه وسلم هو في الحقيقة كفر بجميع الأنبياء والرسل، وكفر بالكتب المنزلة عليهم، لذلك وبخهم الله تعالى في هذه الآية الكريمة "على كفرهم بآيات الله التي أنزلها الله على رسله، التي جعلها رحمة لعباده يهتدون بها إليه، ويستدلون بها على جميع المطالب المهمة والعلوم النافعة، فهؤلاء الكفرة جمعوا بين الكفر بها وصد من آمن بالله عنها وتحريفها وتعويجها عما جعلت له، وهم شاهدون بذلك عالمون بأن ما فعلوه أعظم الكفر الموجب لأعظم العقوبة (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب بما كانوا يفسدون) فلهذا توعدهم هنا بقوله: (وما الله بغافل عما تعملون) بل محيط بأعمالكم ونياتكم ومكركم السيء، فمجازيكم عليه أشر الجزاء".[45]

النداء السابع:

قال تعالى: (ياأهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما في السماوات وما في الأرض وكفى بالله وكيلا) [النساء:171].

نهى الله عز وجل في الآية أهل الكتاب عن الغلو في الدين، وعن القول على الله تعالى بالباطل، و"الغلو: مجاوزة الحد، والآية في النصارى، قال الحسن: يجوز أن تكون في اليهود والنصارى؛ فإنهم غلوا في أمر عيسى، أما اليهود بالتقصير في حقه، وأما النصارى بمجاوزة الحد فيه".[46]

إن غلو النصارى في السيد المسيح عليه السلام هو ادعاؤهم أنه ابن الله، وأنه إله – تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا –

ففي هذه الآية الكريمة "استئناف ابتدائي بخطاب موجه إلى النصارى خاصة. وخوطبوا بعنوان أهل الكتاب تعريضا بأنهم خالفوا كتابهم. وقرينة أنهم المراد هي قوله: (إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله) إلى قوله: (أن يكون عبدا لله) [النساء: 172] فإنه بيان للمراد من إجمال قوله: (لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق)، وابتدئت موعظتهم بالنهي عن الغلو لأن النصارى غلوا في تعظيم عيسى– فادعوا له بنوة الله، وجعلوه ثالث الآلهة.

والغلو: تجاوز الحد المألوف، مشتق من غلوة السهم، وهي منتهى اندفاعه، واستعير للزيادة على المطلوب من المعقول، أو المشروع في المعتقدات، والإدراكات، والأفعال. والغلو في الدين أن يظهر المتدين ما يفوت الحد الذي حدد له الدين. ونهاهم عن الغلو لأنه أصل لكثير من ضلالهم وتكذيبهم للرسل الصادقين. وغلو أهل الكتاب تجاوزهم الحد الذي طلبه دينهم منهم: فاليهود طولبوا باتباع التوراة ومحبة رسولهم، فتجاوزوه إلى بغضة الرسل كعيسى ومحمد– عليهما السلام–، والنصارى طولبوا باتباع المسيح فتجاوزوا فيه الحد إلى دعوى إلهيته أو كونه ابن الله، مع الكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم".[47]

ووجه الحجاج في الآية الكريم، فيما يلي:

– الحجة الأولى: أهل الكتاب أهل غلو في الدين، ومن الأمثلة على ذلك: غلوهم في السيد المسيح، وادعاء أنه ابن الله، وأنه إله – تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا –

وقد جاء هذا النهي الإلهي لهم ينهاهم "تعالى عن الغلو والإطراء، وهذا كثير في النصارى، فإنهم تجاوزوا الحد في عيسى حتى رفعوه فوق المنزلة التي أعطاه الله إياها، فنقلوه من حيز النبوة، إلى أن اتخذوه إلها من دون الله يعبدونه كما يعبدونه. بل قد غلوا في

أتباعه وأشياعه ممن زعم أنه على دينه، فادعوا فيهم العصمة، واتبعوهم في كل ما قالوه سواء كان حقا أو باطلا، أو ضلالا أو رشادا، أو صحيحا أو كذبا، ولهذا قال الله تعالى: اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله [التوبة: 31]".[48]

– الحجة الثانية: أهل الكتاب ليسوا على شيء، لأنهم بغلوهم في الدين قد قالوا على الله تعالى غير الحق، وهو قولهم – تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا –: " إن الله له شريك أو ابن أو زوجة".[49]

فقولهم ذاك حجة واضحة على أنهم على كفر وضلال، وأهل قول على الله تعالى بغير حق، لذلك فإن في هذه الآية الكريمة "ينهى تعالى أهل الكتاب عن الغلو في الدين وهو مجاوزة الحد والقدر المشروع إلى ما ليس بمشروع. وذلك كقول النصارى في غلوهم بعيسى عليه السلام، ورفعه عن مقام النبوة والرسالة إلى مقام الربوبية الذي لا يليق بغير الله، فكما أن التقصير والتفريط من المنهيات، فالغلو كذلك، ولهذا قال: (ولا تقولوا على الله إلا الحق) وهذا الكلام يتضمن ثلاثة أشياء: أمرين منهي عنهما، وهما قول الكذب على الله، والقول بلا علم في أسمائه وصفاته وأفعاله وشرعه ورسله، والثالث: مأمور به وهو قول الحق في هذه الأمور.

ولما كانت هذه قاعدة عامة كلية، وكان السياق في شأن عيسى عليه السلام نص على قول الحق فيه، المخالف لطريقة اليهودية والنصرانية فقال: (إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله) أي: غاية المسيح عليه السلام ومنتهى ما يصل إليه من مراتب الكمال أعلى حالة تكون للمخلوقين، وهي درجة الرسالة التي هي أعلى الدرجات وأجل المثوبات. وأنه (كلمته) التي (ألقاها إلى مريم) أي: كلمة تكلم الله بها فكان بها عيسى، ولم يكن تلك الكلمة، وإنما كان بها، وهذا من باب إضافة التشريف والتكريم. وكذلك قوله: (وروح منه) أي: من الأرواح التي خلقها وكملها بالصفات الفاضلة والأخلاق الكاملة، أرسل الله روحه جبريل عليه السلام فنفخ في فرج مريم عليها السلام، فحملت بإذن الله بعيسى عليه السلام.

فلما بين حقيقة عيسى عليه السلام، أمر أهل الكتاب بالإيمان به وبرسله، ونهاهم أن يجعلوا الله ثالث ثلاثة أحدهم عيسى، والثاني مريم، فهذه مقالة النصارى قبحهم الله. فأمرهم أن ينتهوا، وأخبر أن ذلك خير لهم، لأنه الذي يتعين أنه سبيل النجاة، وما سواه فهو طريق الهلاك، ثم نزه نفسه عن الشريك والولد فقال: (إنما الله إله واحد) أي: هو المنفرد بالألوهية، الذي لا تنبغي العبادة إلا له. (سبحانه) أي: تنزه وتقدس (أن يكون له ولد) لأن (له ما في السماوات وما في الأرض) فالكل مملوكون له مفتقرون إليه، فمحال أن يكون له شريك منهم أو ولد.

ولما أخبر أنه المالك للعالم العلوي والسفلي أخبر أنه قائم بمصالحهم الدنيوية والأخروية وحافظها، ومجازيهم عليها تعالى".[50]

– الحجة الثالثة: أن النصارى لو كانوا يؤمنون بالله تعالى ما نسبوا إليه الولد، ولو كانوا يؤمنون بالسيد المسيح عليه السلام ما ادعوا فيه الألوهية، فلما ادعوا أن لله تعالى ولدا، وأن عيسى عليه السلام إلها، كان ذلك حجة واضحة على أنهم كفار بالله تعالى، وبعيسى عليه السلام، وبالإنجيل الذي أنزِل عليه.

– النتيجة: ليس أمام أهل الكتاب إلا الإيمان بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، وتوحيد الله تعالى بالعبادة، والبعد عن الشرك، وتجنب الغلو، وتنزيه الله تعالى عما لا يليق به.

النداء الثامن:

قال الله جل وعلا: (ياأهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم) [المائدة:15-16].

في هذه الآية الكريمة يأمر الله تعالى أهل الكتاب بتصديق النبي صلى الله عليه وسلم، فقد جاء بالنور والهداية والدعوة إلى الطريق المستقيم، وفي نفس الوقت يدعوهم ربنا تبارك وتعالى إلى عدم كتمان الحق الذي هو (أي الكتمان) صفة لصيقة بهم على مدار التاريخ والزمان.

إن معنى النداء الوارد في الآية يتمثل في "يا أهل الكتاب: قد جاءكم محمد صلى الله عليه وسلم مؤيدا بمعجزة القرآن المعجزة الباقية الخالدة، فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله. هذا النبي قد بين لكم كثيرا من الأحكام والآيات التي كنتم تخفونها عن العوام، فقد روى أن هذه الآية نزلت حينما كتموا حكم الزاني المحصن وأقسم النبي صلى الله عليه وسلم على حبرهم ابن صوريا وناشده الله حتى اعترف به.

وقد أنكروا غير ذلك من بشارة النبي ووصفه فبينه القرآن لهم، ولقد كان بيان القرآن لما كتموه سببا في إسلام كثير من أحبارهم وعلمائهم.

يبين الله بواسطة رسوله كثيرا مما يخفون، ويعفو عن كثير مما لا تمس الحاجة إليه، ولا يفيد الدعوة في شيء، وهم يعلمون أنهم يخفون غير الذي أبداه الرسول ...

يا أهل الكتاب: قد جاءكم من الله نور هو النبي محمد، أو هو القرآن، أو دينه، وجاءكم كذلك كتاب مبين بين الحق وأظهر المكنون، يهدى به الله من اتبع رضوانه طريق الخير التي تنجيه من العذاب الأليم، ويخرج من اتبعه من ظلمات الشرك والخبث والخرافة والأوهام الباطلة إلى نور الإسلام وهدى القرآن الذي أنزل بعلمه ومشيئته وتوفيقه، ويهدى من اتبعه صراطا مستقيما يوصل إلى خير الدنيا والآخرة".[51]

ويتجلى الحجاج في الآية في الآتي:

- الحجة الأولى: الرسول صلى الله عليه وسلم حق، والقرءان الكريم حق، فقد بين النبي صلى الله عليه وسلم لأهل الكتاب كثيرا من الأمور والأحكام التي أخفوها، ومن ذلك: إخفاؤهم لصفة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وإخفائهم لآية الرجم، فبيان النبي صلى الله عليه وسلم ذلك لهم، وإعراضه عن أمور أخرى، دليل على صدق نبوته، لأن القوم يعلمون يقينا أن ما بينه لهم مما يكتمونه حق لا مرية فيه.

- الحجة الثانية: القرءان الكريم حق، والقوم يعلمون صدق فيه، لأن بيّنَ ما كانوا يكتمونه، ولأنه لا يختلف عن الكتب السماوية الأخرى، فجميع الكتب التي أنزلها الله تعالى تدعو إلى التوحيد، والتحذير من الشرك وأهله، وتدعو إلى تنزيه الله تعالى، والإيمان بجميع أركان الإيمان.

النتيجة: أهل الكتاب يعلمون هذه الحقائق التي جاء بها النبي صلى الله عليه وسلم، والحجة قائمة عليهم، فليس لهم بعد ذلك إلا الإذعان بدل الجحود والكفران.

النداء التاسع:

قال الله عز وجل: (ياأهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شيء قدير) [المائدة:19].

في هذا النداء يخاطب الله عز وجل " أهل الكتاب من اليهود والنصارى بأنه قد أرسل إليهم رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين، الذي لا نبي بعده ولا رسول، بل هو المعقب لجميعهم، ولهذا قال: (على فترة من الرسل)، أي بعد مدة متطاولة ما بين إرساله وعيسى ابن مريم". [52]

فليس يوم القيامة من عذر البتة، لأن الحجة الرسالية قد وصلتهم، وبوصولها تكون قد أقيمت عليهم، فقد قال الله عز وجل: (وأوحي إلي هذا القرءان لأنذركم به ومن بلغ) [الأنعام:19].

فكل من بلغه القرءان فقد أقيمت عليه الحجة، فقد جاء في تفسير الإمام الطبري: " حدثنا الحسن بن يحي قال، أخبرنا عبد الرزاق قال، أخبرنا معمر، عن قتادة في قوله:"لأنذركم به ومن بلغ"، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: بلغوا عن الله، فمن بلغه آيه من كتاب الله، فقد بلغه أمر الله". [53]

ووجه الحجاج في الآية الكريمة يتجلى في الآتي:

- الحجة الأولى: أن رسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم جاءت بعد انقطاع الوحي برفع السيد المسيح عليه السلام، وقد حدث بعده تزوير وتحريف للإنجيل، فكان أهل الكتاب بحاجة إلى نبي يعيدهم إلى الدين الصحيح الذي جاء به جميع الأنبياء والرسل والذي كان آخرهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، الذي دعوته ودعوة الأنبياء قبله تخرج كلها من مشكاة واحدة.

إن أهل الكتاب لما ضيعوا ما جاء في الكتب السماوية، وأعرضوا عنها، ونبذوها وراء ظهورهم، خاطبهم الله عز وجل في هذه الآية، مبينا لهم أن دعوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، هي دعوة موسى وعيسى وجميع الأنبياء عليهم السلام، ليس بينهم اختلاف البتة، فكان كفرهم بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم هو في الحقيقة كفر بجمييع الأنبياء، إذ ليس لهم حجة أبدا في تكذيبهم برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

- الحجة الثانية: إن حجج أهل الكتاب داحضة، وادعاءاتهم منسوفة واهية، ليس لهم حجة أبدا يستندون إليها في عدم إيمانهم بنبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وليس لهم عذر يوم القيامة البتة، ولايمكن أن يكونوا من الناجين يوم يقوم الناس لرب العالمين، ما دام أنهم قد كفروا برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، فكيف إذا أضافوا إلى ذلك مكرهم بالليل والنهار لحرب الإسلام وأهله.

إنه "لما دحضت حجتهم، ووضحت أكذوبتهم، اقتضى ذلك الالتفات إلى وعظهم على وجه الامتنان عليهم وإبطال ما عساهم يظنونه حجة، فقال تعالى: (يا أهل الكتاب) أي من الفريقين؛ ولما كان ما حصل لهم من الضلال بتضييع ما عندهم من البينات وتغييرها ما لا يتوقع معه الإرسال، قال معبراً بحرف التوقع: (قد جاءكم رسولنا) أي الذي عظمته من عظمتنا، فإعظامه وإجلاله

واجب لذلك، ثم بين حاله مقدماً له على متعلق جاء بياناً لأنه أهم ما إلى الرسل إليهم إرشاداً إلى قبول كل ما جاء به بقوله: (يبين لكم) أي يوقع لكم البيان في كل ما ينفعكم بياناً شافياً لما تقدم وغيره".[54]

النتيجة: وجوب الإيمان بالنبي صلىالله عليه وسلم، وذلك بتصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، واجتناب ما عنه نهى وزجر، وان لا يُعبَدالله إلا بما شرع.

النداء العاشر:

قالالله تبارك وتعالى: (قل ياأهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وأن أكثركم فاسقون قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عندالله من لعنهالله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شر مكانا وأضل عن سواء السبيل وإذا جاءوكم قالوا آمنا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به والله أعلم بما كانوا يكتمون وترى كثيرا منهم يسارعون في الإثم والعدوان وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يعملون لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون) [المائدة:59-63].

أخبرالله تبارك وتعالى في هذه الآيات الكريمة أن أهل الكتاب ينقمون على المؤمنين، أي ينكرون ويعيبون عليهم إيمانهم بالله تعالى، وإيمانهم بالكتب السماوية، وهذا كاف في وصف اليهود والنصارى بالفاسقين، فقد خرجوا عن طاعةالله تعالى، ونبذوا ما جاء به الأنبياء وراءهم ظهريا، فاستحقوا بذلك اللعنة وحلول الغضب، فإنهم عوض الإيمان بالله تعالى وبرسله الكرام اختاروا عبادة الطاغوت، فضلوا بذلك عن سواء السبيل، ولم يكتفوا بذلك بل كان ولا يزال من صفاتهم: المسارعة في ركوب الإثم، والمسابقة إلى إلحاق العدوان بالأبرياء، وأكل أموال الناس بالباطل، كما أخبر عز وجل أنه "لبئس الصنيع كان يصنع هؤلاء الربانيون والأحبار، في تركهم نهي الذين يسارعون منهم في الإثم والعدوان وأكل السحت، عما كانوا يفعلون من ذلك".[55]

ووجه الحجاج في الآية الكريمة فيما يلي:

- الحجة الأولى: أن ما ينقمه أهل الكتاب على المؤمنين هو حجة عليهم، ف " «قل» هي خطاب لرسولالله صلىالله عليه وسلم. وحين يخاطب الحق الرسول، فالخطاب أيضا لأمته صلىالله عليه وسلم، فنقول نحن أيضا: (قل ياأهل الكتاب هل تنقمون منآ إلا أن آمنا بالله ومآ أنزل إلينا ومآ أنزل من قبل وأن أكثركم فاسقون) [المائدة: 59].

و «نقم ينقم» أي كره مني أن أفعل هذا، فلماذا تكرهون إيماننا يا أهل الكتاب؟ هل الإيمان مما يكره؟ وجاء الحق هنا بسؤال لا يقدرون على الإجابة عنه، فنحن آمنا بالله وبرسله وما أنزله علينا وما أنزل من قبل، فما الذي يكره في هذا؟ وأبلغ سيدنا محمد صلىالله عليه وسلم اليهود أننا نؤمن بالله وبالرسل ومنهم سيدنا عيسى ابن مريم عليه السلام، فغضبوا منه كثيرا. فكيف يكره أهل الكتاب إيمان المسلمين بالله؟".[56]

هذا دليل وحجة على كراهية القوم للحق الذي جاء به جميع الأنبياء – عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة و أزكى التسليم –

- الحجة الثانية: أهل الكتاب ليسوا على شيء لأنهم يكرهون الحق، ويشركون معالله تعالى غيره، ويأكلون أموال الناس بالباطل...إذن هم مخالفون مخالفة صريحة لجميع الأنبياء، ومنحرفون انحرافا بعيدا عن التعاليم الإلهية التي أنزلهاالله تعالى في كتبه.

- النتيجة: الدين الحق هو الإسلام الذي هو دين جميع الأنبياء والمرسلين، فمن تمسك به كان من المهتدين، ومن حاد عنه ضل عن الصراط المستقيم، ولن تتحقق الهداية إلا بالإيمان بنبينا محمد صلىالله عليه وسلم، وبما جاء به، فقد تضمنت دعوته كل خير، وفيها النهي عن كل شر

إن هذه الصفات التي ذكرهاالله تعالى عن أهل الكتاب لدليل واضح، وحجة ظاهرة على أن القوم قد ضيعوا تعاليم الأنبياء، وانحرفوا عنها انحرافا مبينا، فضلوا وأضلوا.

النداء الحادي عشر:

قال ربنا سبحانه وتعالى: (قل ياأهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا فلا تأس على القوم الكافرين) [المائدة:68].

في هذه الآية الكريمة بيان منالله عز وجل أن اليهود والنصارى ما داموا لا يعملون بما جاء في التوراة والإنجيل، وما دام أنهم قد انحرفوا عن التعاليم التي أنزلهاالله تعالى على أنبيائه ورسله – عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة وأزكى التسليم – فإنهم ليسوا على شيء، بل لن يزيدهم ما هم عليه إلا كفرا، وطغيانا في الأرض.

لقد " أمرالله تعالى محمدا عليه الصلاة والسلام أن يقول لأهل الكتاب المعاصرين له:

لستم على شيء مستقيم حتى تقيموا وتطبقوا التوراة والإنجيل في الأمر بتوحيدالله الخالص والعمل الصالح، والإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم، والعمل بالقرآن، المنزل إليكم من ربكم، ونحن المسلمون من باب أولى: لسنا على شيء أبدا حتى نعمل بأحكام القرآن.

ثم أقسمالله قسما مفاده أنه ليزيدن القرآن المنزل إليك من ربك طغيانا أو تجاوزا للحد في الظلم على طغيان، وكفرا على كفر، بسبب الحسد الكامن، فلا تحزن يا محمد ولا تتأسف عليهم، لزيادة طغيانهم وجحودهم، فإن ضرر ذلك راجع إليهم لا إليك".[57]

ويتجلى الحجاج في هذه الآية الكريمة فيما يلي:

- الحجة الأولى: أهل الكتاب ليسوا على شيء مستقيم، لأنهم نبذوا أوامر التوراة والإنجيل وراءهم ظهريا، ومن ذلك أنهم لم يوحدواالله تعالى بالعبادة، ولم ينزهوه عز وجل، ولم يوقروا أنبياءه ورسله، ولم يحافظوا على الكتب السماوية...

- الحجة الثانية: اليهود والنصارى ليس معهم من الهدى والاستقامة شيء أبدا، وقد تأمل الآية أدرك هذا الأمر بجلاء، إذ معناها الذي دلت عليه: "قل يا محمد لهؤلاء اليهود والنصارى الذين امتدت أيديهم إلى كتبهم بالتغيير والتبديل. قل لهم يا أهل الكتاب لستم على شيء يعتد به من الدين أو العلم أو المروءة حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم.

أي: لستم على شيء يقام له وزن من أمر الدين حتى تعملوا بما جاء في التوراة والإنجيل، من أقوال تبشر برسالة محمد صلىالله عليه وسلم وحتى تؤمنوا بما أنزل إليكم من ربكم من قرآن كريم يهدى إلى الرشد: لأنكم مخاطبون به، ومطالبون بتنفيذ أوامره ونواهيه، ومحاسبون حسابا عسيرا على الكفر به، وعدم الإذعان لما اشتمل عليه.

والتعبير بقوله– تعالى– لستم على شيء فيه ما فيه من الاستخفاف بهم، والتهوين من شأنهم، أى: لستم على شيء يعتد به ألبتة من أمر الدين. وذلك كما يقول القائل عن أمر من الأمور: هذا الأمر ليس بشيء يريد تحقيره وتصغير شأنه. وفي الأمثال، أقل من لا شيء.

فالجملة الكريمة تنفى عنهم أن يكون في أيديهم شيء من الحق والصواب ماداموا لم يؤمنوا بالنبي صلىالله عليه وسلم الذي بشرت به التوراة والإنجيل وأنزلالله عليه القرآن وهو الكتاب المهيمن على الكتب السماوية السابقة".[58]

النتيجة: الدين الحق هو الذي جاء بها نبينا محمد صلىالله عليه وسلم، والذي يجب على الجميع الدخول فيه، وأما ما عليه اليهود والنصارى فليس بشيء، بل هم أهل ضلال وانحراف، وشرك، وطغيان، وعدوان، وسعي في الأرض فسادا...

النداء الثاني عشر:

قالالله عز وجل: (قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل) [المائدة:77].

لقد نهىالله تعالى أهل الكتاب في هذه الآية عن الغلو في الدين، والذي معناه: مجاوزة الحد، دون الرجوع إلى الوحي، فالغلو مبالغة إلى حد الإسراف.

قال الإمام القرطبي في تفسير الآية: "قوله تعالى: (قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق) أي لا تفرطوا كما أفرطت اليهود والنصارى في عيسى، غلو اليهود قولهم في عيسى، ليس ولد رشدة، وغلو النصارى قولهم: إنه إله. والغلو مجاوزة الحد".[59]

وذكر بعض المفسرين أن الخطاب موجه للنصارى، كالإمام الطبري الذي قال: "وهذا خطاب منالله تعالى ذكره لنبيه محمد صلىالله عليه وسلم. يقول تعالى ذكره:(قل)، يا محمد، لهؤلاء الغالية من النصارى في المسيح (يا أهل الكتاب)، يعني بـ(الكتاب)، الإنجيل، (لا تغلوا في دينكم)، يقول: لا تفرطوا في القول فيما تدينون به من أمر المسيح، فتجاوزوا فيه الحق إلى الباطل، فتقولوا فيه:"هوالله"، أو:"هو ابنه"، ولكن قولوا: "هو عبدالله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه"، (ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا)، يقول: ولا تتبعوا أيضا في المسيح أهواء اليهود الذين قد ضلوا قبلكم عن سبيل الهدى في القول فيه، فتقولون فيه كما قالوا:"هو لغير رشدة"، وتبهتوا أمه كما بهتوها بالفرية وهي صديقة، (وأضلوا كثيرا)، يقول تعالى ذكره: وأضل هؤلاء اليهود كثيرا من الناس، فحادوا بهم عن طريق الحق، وحملوهم على الكفر بالله والتكذيب بالمسيح، (وضلوا عن سواء السبيل)، يقول: وضل هؤلاء اليهود عن قصد الطريق، وركبوا غير محجة الحق. وإنما يعني تعالى ذكره بذلك، كفرهم بالله، وتكذيبهم رسله: عيسى ومحمدا صلىالله عليه وسلم، وذهابهم عن الإيمان وبعدهم منه، وذلك كان ضلالهم الذي وصفهمالله به".[60]

ويتجلى الحجاج في الآية الكريمة في الآتي:

– الحجة الأولى: الزيادة في الدين خروج عن الوحي المنزل على الأنبياء عليهم السلام.

– الحجة الثانية: الزيادة في الدين محرمة لأنها ليست من الحق بل من الباطل.

– الحجة الثالثة: من أسباب الغلو في الدين اتباع الأهواء، لمخالفته الصريحة للوحي.

– النتيجة: الغلو في الدين ضلال عن سواء السبيل، وأن ما عليه اليهود والنصارى من دين ليس له مستند شرعي، فقد حرفوا الشرائع، وحادوا عن طريق الاستقامة، وحكموا أهواءهم، فضلوا وأضلوا.

ومن أمثلة الغلو الذي وقع فيه النصارى: ادعاؤهم الألوهية في السيد المسيح عليه السلام، وهذا كاف في ذمهم، وسفاهتهم، وأنهم قوم قد ضلوا ضلال بعيدا.

فلو أنهم وظفوا عقولهم لأيقنوا أن ما يعتقدونه في السيد المسيح عليه السلام لا يقبله العقل البتة، إذ كيف يكون عيسى عليه السلام إلها، وهم يزعمون أنه صلب، وقُتِل...؟ !

ولله در الإمام ابن القيم – رحمه الله تعالى – إذ يقول:

أعباد المسيح لنا سؤال *** نريد جوابه ممن وعاه

إذا مات الإله بصنع قوم *** أماتوه فما هذا الإله

وهل أرضاه ما نالوه منه *** فبشراهم إذا نالوا رضاه

وإن سخط الذي فعلوه فيه *** فقوتهم إذا أوهت قواه

وهل بقي الوجود بلا إله *** سميع يستجيب لمن دعاه

وهل خلت الطباق السبع لما *** ثوى تحت التراب وقد علاه

وهل خلت العوالم من إله *** يدبرها وقد سمرت يداه

وكيف تخلت الأملاك عنه *** بنصرهم وقد سمعوا بكاه

وكيف أطاقت الخشبات حمل ا لـ. *** إله الحق مشدودا قفاه

وكيف دنا الحديد إليه حتى *** يخالطه ويلحقه أذاه

وكيف تمكنت أيدي عداه *** وطالت حيث قد صفعوا قفاه

وهل عاد المسيح إلى حياة *** أم المحيي له رب سواه

ويا عجبا لقبر ضم ربا *** وأعجب منه بطن قد حواه

أقام هناك تسعا من شهور *** لدى الظلمات من حيض غذاه

وشق الفرج مولودا صغيرا *** ضعيفا فاتحا للثدي فاه

ويأكل ثم يشرب ثم يأتي *** بلازم ذاك هل هذا إله

تعالىالله عن إفك النصارى *** سيسأل كلهم عما افتراه

أعباد الصليب لأي معنى *** يعظم أو يقبح من رماه

وهل تقضي العقول بغير كسر *** وإحراق له ولمن نعاه

إذا ركب الإله عليه كرها *** وقد شدت لتسمير يداه

فذاك ا المركب الملعون حقا *** فدسه لا تبسه إذ تراه

يهان عليه رب الخلق طرا *** وتعبده فإنك من عداه

فإن عظمته من أجل أن قد *** حوى رب العباد وقد علاه

وقد فقد الصليب فإن رأينا *** له شكلا تذكرنا سناه

فهلا للقبور سجدت طرا *** لضم القبر ربك في حشاه

فيا عبد المسيح أفق فهذي *** بدايته وهذا منتهاه[61]

إن حجج النصارى في ادعائهم الألوهية في السيد المسيح عليه السلام واهية جدا جدا جدا...

إنهم يدعون أن عيسى عليه السلام إلها لأنه ولد من أم بلا أب، فيلزمهم في هذه الحالة أن يقولوا بألوهية آدم عليه السلام، فإنه ليس له أب ولا أم.

قال الله تعالى: (إن مثل عيسى عندالله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون الحق من ربك فلا تكن من الممترين فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنت اللهعلى الكاذبين) [ءال عمران:59-61].

ففي هذه الآية أكثر من قياس.

لقد تضمنت الآية قياس التمثيل، وهو أن عيسى مثل آدم – عليهما السلام - فكلاهما مخلوقان خلقهماالله تعالى، فإذا كان النصارى يعبدون السيد المسيح عليه السلام لأنه ولد من غير أب، بل من أم فقط، فلماذا لا يعبدون أيضا آدم فإنه مثله، ليس له أب، بل ليس له أم أيضا؟

كما أن في الآية قياس الأولى، وهو أن آدم عليه السلام ليس له أب ولا أم، ومع ذلك ليس إلها.

إذن، من باب أولى أن عيسى عليه السلام ليس إلها.

فليس هناك إلا إله واحد، وهوالله جل جلاله، وتقدست أسماؤه وصفاته، لا ما يقوله النصارى – تعالىالله عن قولهم علوا كبيرا –

وفي هذا السياق يقول الحافظ ابن كثير – رحمه‌الله تعالى -: "يقول جلا وعلا: إن مثل عيسى عندالله في قدرةالله حيث خلقه من غير أب كمثل آدم حيث خلقه من غير أب ولا أم بل خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون فالذي خلق آدم من غير أب، قادر على أن يخلق عيسى بطريق الأولى والأحرى، وإن جاز ادعاء النبوة فيعيسى لكونه مخلوقا من غير أب، فجواز ذلك في آدم بالطريق الأولى، ومعلوم بالاتفاق أن ذلك باطل، فدعواه في عيسى أشد بطلانا وأظهر فسادا، ولكن الرب جل جلاله أراد أن يظهر قدرته لخلقه حين خلق آدم لا من ذكر ولا من أنثى، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر، كما خلق بقية البرية من ذكر وأنثى، ولهذا قال تعالى في سورة مريم ولنجعله آية للناس [مريم: 21] وقال هاهنا: الحق من ربك فلا تكن من الممترين أي هذا هو القول الحق في عيسى الذي لا محيد عنه ولا صحيح سواه، وماذا بعد الحق إلا الضلال. ثم قال تعالى آمرا رسوله صلى الله عليه وسلم، أن يباهل من عاند الحق في أمر عيسى بعد ظهور البيان فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم أي نحضرهم في حال المباهلة ثم نبتهل أي نلتعن فنجعل لعنتالله على الكاذبين أي منا أو منكم".[62]

خاتمة:

هذا ما يسرالله عز وجل بيانه في هذه الأوراق حول ما تضمنه النداء القرءاني لأهل الكتاب، والمتعلق بسلوكهم – قديما وحديثا –.

لقد استهدفت هذه الدراسة موقف أهل الكتاب (اليهود والنصارى) من الوحي المنزل على الأنبياء – عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة وأزكى التسليم، وهو أنهم قد حرفوا الشرائع المنزلة، وزوروا الكتب السماوية، وأساءوا الأدب معالله تعالى وملائكته وأنبيائه ورسله، فقد قتلوا من الأنبياء خلقا كثيرا، وتآمر اليهود على قتل السيد المسيح عليه السلام فنجاهالله تعالى منهم، كما تآمروا على قتل النبي صلىالله عليه وسلم، فعصمهالله تبارك منهم.

لقد تبين من خلال هذه الدراسة الحجاجية لآيات النداء لأهل الكتاب أن اليهود والنصارى ليسوا على شيء، فقد حادوا عن الشريعة المنزلة على الأنبياء، وسعوا في تحريفها، والزيادة فيها، والنقصان منها، فقست قلوبهم، وفسقوا عن أمر ربهم.

كما تبين من خلال هذا البحث أن الأصل في حوار أهل الكتاب (اليهود والنصارى) البدء معهم بالدعوة إلى الكلمة السواء (لا إله إلاالله) التي دعا إليها جميع الأنبياء – عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة وأزكى التسليم – وبيان أنها تتضمن نفيا وإثباتا، وتحذيرهم من اتخاذ بعضهم بعضا أربابا من دونالله تعالى، وذلك ببيان لهم أن تحليل الحرام، وتحريم الحلال شرك بالله تعالى، لأن الذي له الحق في التحليل والتحريم هوالله جل جلاله وتقدست أسماؤه وصفاته، أما البشر فليس لهم الحق في ذلك البتة، وتحذيرهم أيضا من الغلو، وتحريف النصوص، ولي أعناقها.

كما أن الأصل في حوار أهل الكتاب: دعوتهم إلى الإيمان بجميع الأنبياء والرسل – عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة وأزكى التسليم – وأن من كفر بواحد منهم فهو كافر بالجميع، فلا بد من الإيمان بجميع الأنبياء والمرسلين، ومحبتهم، وتصديقهم، وطاعتهم، وتوقيرهم، والذب عنهم...

وغير ذلك مما تضمنته هذه الدراسة.

هذا، والله العظيم أسأل أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم، وموافقا لسنة نبيه الأمين – عليه منالله تعالى أفضل الصلاة وأزكى التسليم – وأن ينفعني ووالدي وأهلي وناشر هذا البحث وقارئه وكل من له الحق علي به يوم نلقاه (يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتىالله بقلب سليم).

وصلىالله وسلم وبارك على سيدنا وحبيبنا ونبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

والحمد لله رب العالمين.

الهوامش:

[1] تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان / عبد الرحمن بن ناصر السعدي (ص:825).

[2] الموسوعة الفقهية الكويتية (15/166-167).

[3] التحرير والتنوير / محمد الطاهر بن عاشور (27/429).

[4] المصدر السابق (27/429-430).

[5] تفسير ابن كثير (3/332-333).

[6] لسان العرب / ابن منظور، تحقيق عبد الله علي الكبير، ومحمد أحمد حسب الله، وهاشم محمد الشاذلي، المجلد الثاني، الجزء التاسع (ح ج ج)، ص: 779.

[7] القاموس المحيط / مجد الدين محمد يعقوب الفيروزآبادي، مادة: (ح ج ج)، و (باب الجيم، فصل الحاء).

[8] العين / أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري، تحقيق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي (3/10) .

[9] المصباح المنير في غريب الشرح الكبير / أبو العباس أحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي (1/121)

[10] معجم مقاييس اللغة / أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي (2/30).

[11] الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية / أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (1/304).

[12] المحكم والمحيط الأعظم / أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي، تحقيق: عبد الحميد هنداوي (2/482).

[13] تفسير الشعراوي / محمد متولي الشعراوي (11/6450).

[14] مجلة فصول: النص الحجاجي العربي، دراسة في وسائل الإقناع/ محمد العبد (ص:44).

[15] وقد درست آيات كثيرة دراسة حجاجية، وبينت كيف أن هذا العلم له أهمية كبرى في الحوار والتواصل والإقناع والتأثير، في أطروحتي التي بعنوان: (الحجاج وأساليبه في القرءان الكريم في الرد على المنكرين وأثره في التحصين العقدي على الفرد والمجتمع)، والتي تمت مناقشتها بكلية الآداب والعلوم الإنسانية – عين الشق، بمدينة الدار البيضاء – يسر الله طباعتها قريبا إن شاء الله تعالى –

[16] مدارك التنزيل وحقائق التأويل / أبو البركات حافظ الدين عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي (1/135).

[17] معالم التنزيل في تفسير القرآن / أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (1/136).

[18] فتح القدير / محمد بن علي الشوكاني اليمني (2/154).

[19] جامع البيان في تأويل القرآن / أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (9/409).

[20] أنوار التنزيل وأسرار التأويل / أبو سعيد ناصر الدين عبد الله بن عمر الشيرازي البيضاوي (5/108).

[21] الإحكام في أصول الأحكام / الآمدي (4/118).

[22] كشف اصطلاحات الفنون والعلوم / التهانوي (1/151).

[23] الواضح / لابن عقيل، (1/447).

[24] شرح مختصر الروضة / للطوفي، (1/134).

[25] التقرير والإرشاد / للباقلاني، (1/208).

[26] إرشاد القرءان والسنة إلى طريق المناظرة وتصحيحها وبيان العلل المؤثرة / ابن القيم (ص:69).

[27] الحجاج في الشعر العربي القديم، من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة: بنياته وأساليبه / سامية الدريدي (ص:27).

[28] الفروق اللغوية / أبو هلال العسكري (ص:70).

[29] الحجاج في القرءان من خلال أهم خصائصه الأسلوبية / عبد الله صولة (ص:8).

[30] المصدر السابق (ص:9).

[31] تفسير ابن كثير (2/49).

[32] تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان / عبد الرحمن بن ناصر السعدي (ص:133).

[33] ينظر تفسير ابن جرير الطبري (14/208).

[34] المصدر السابق (14/209).

[35] محاسن التأويل / محمد جمال الدين القاسمي (5/394).

[36] تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان / عبد الرحمن بن ناصر السعدي (ص:134).

[37] معالم التنزيل في تفسير القرءان / أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (1/456).

[38] فتح القدير / محمد بن علي الشوكاني (1/402).

[39] معالم التنزيل في تفسير القرءان / أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (456/1).
[40] أيسر التفاسير / أبو بكر الجزائري (329/1).
[41] أنوار التنزيل وأسرار التأويل / أبو سعيد عبد الله بن عمر البيضاوي (30/2).
[42] التفسير الواضح / محمد محمود الحجازي (258/1).
[43] تفسير ابن كثير (73/2).
[44] تفسير محمد بن جرير الطبري (53/6).
[45] تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان / عبد الرحمن بن ناصر السعدي (ص:141).
[46] تفسير القرءان / أو المظفر السمعاني (505/1).
[47] التحرير والتنوير / محمد الطاهر بن عاشور (50/6).
[48] تفسير ابن كثير (424/2).
[49] زاد المسير / ابن الجوزي (501/1).
[50] تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان / عبد الرحمن بن ناصر السعدي (ص:216).
[51] التفسير الواضح / محمد محمود الحجازي (495/1).
[52] تفسير ابن كثير (63/3).
[53] تفسير محمد بن جرير الطبري (290/11).
[54] نظم الدرر في تناسب الآيات والسور / إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (69/6).
[55] تفسير محمد بن جرير الطبري (448/10).
[56] تفسير الشعراوي / محمد متولي الشعراوي (3247/6-3248).
[57] التفسير الوسيط / وهبة الزحيلي (481/1).
[58] التفسير الوسيط للقرآن الكريم / محمد سيد طنطاوي (227/4).
[59] الجامع لأحكام القرءان / أبو عبد الله القرطبي (252/6).
[60] تفسير الطبري (487/10).
[61] إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان / ابن القيم (1063/2-1064).
[62] تفسير ابن كثير (41/2-42).